فلسطيني

قصة بقلم سميرة عزام

(الى الذين يغمغمون بجواب كسيح كلما سئلوا عن هوياتهم ... كأنهم يعتذرون !)

قال مترددا والكلمات تجرح حلقه المتيبس « اعطني هويتك ، انظر فيها قليلا واعيدها » .

وبدا على جاره انه لم يفهم فعاد يقول مادا يده بشيء من نفاد الصبر : « أقصد بطاقتك ، بطاقة هويتك »، وتحت عصبية اليد الممدودة اخرج الآخر محفظة متآكلة واخرج البطاقة ودفع بها اليه ، وقبل ان يخطو بها متجاوزا العتبة مرق الصوت من وراء اذنه يقول : « وما نفعل بهويتي يا فلسطيني ؟ » ولو سمع الجار التتيمة التي دمدم بها لانتزعها حتما من بين اصابعه ، ولكنه سارع بها الى دكانه، ورخم امام الطاولة المبقعة ، وفتحها ، ثم مد يده الى جيبه واخرج بطاقته الجديدة ، خضراء يجري فيها رونق، ارزتها سليمة الاغصان لم يثنها التغضن ، جديدة ماتسلمها الا قبل اسبوعين ، صورته على جانب منها وعلى كل طية من طياتها الثلاث ختم مستدير لقسم النفوس في وزارة الداخلية ، ورابع على الوجه الاخر من الطية الرابعة. اربعة اختام مستديرة صريحة لا تنفذ شبهة من حلقتها المفرغة ، وتوقيع الرئيس والمأمور يكادان يتعانقان في خطوط ملتوية ملتفة غامضة منيعة لايبين منها اسم ما ، شأن تواقيع من بيدهم مقدرات الامور ...

وتلك بطاقة الجار لا تختلف الا بالصورة العتيقة الباهتة وبتفصيلات الاسم والسن ومكان الولادة وتاريخها، وبالتغضن والتكسر وكثرة ماتحمل من آثار اصابع ماوثة لا مكترثة لا تحسن الرفق بما يأتي كحق طبيعي لم يقاض صاحبه جهدا او قلقا او شكا او نقودا .. بطاقة لم تكن بنت شعور مغيظ محنق ممض من انه في الحي الذي يعيش فيه ، والذي افتتح فيه دكانا تعامل معها الحي اكثر من عشر سنوات نقدا او دينا او « نصبا » لم يستطع ان يفرض لنفسه اسما ما ... فهو في هذا الركن الذي تقوم فيه دكان لا تختلف في شيء عن اكثر الدكاكين .. ليس اكثر من « فلسطيني » .. بهذا ينادونه ، ويعرفونه، ويشتمونه اذا ما اقتضى الامر ،شأنه شأن ذلك الارمني الاسكافي الذي عرفه في صباه ، والذي ساخ من عمره التعس ثلاثين عاما متداركا نعال الحي بالرقع فلم يبال احد ــ بل لم يجد حاجة ــ بان يعرف اهو هاجوب كما يمكن لاسماء الارمن ان تكون ، او سركيس او وارطان ، فالارمني هو كل اسمه ، هكذا عاش وهكذا مات ، فعزله اسمه عن كل الناس حيا وميتا ، ولعل التسمية قد عقدته فما ترحرحت تلك العجمة في لسانه ولم ترتفع اهتماماته بما حوله عن مستوى الاقدام!

* * *

بطاقتا الهوية امامه ، واصبعه تتنقل بينهما والتفاصيل تهتز امام عينيه ، وزبون يدخل فيصرفه بحركة من يده دون ان يرى وجهه ، فيمضي هذا ساخطا لايعرف لماذا لايريد الرجل ان يبيع ... والصحيفة تنزلق الى الارض فيرفعها فيرهبه العنوان الاحمر يتوج صور اعضاء العصابة. وما جدوى ان يقرأ الخبر للمرة الخامسة او المائة ؟ فلن يفهم اكثر مما فهم ، والصورة برهان دافع .. الوجه النحيف وقد اكلت النظارتان اكثر من نصفه ، والصلعة التي تمتد من فوق النظارتين ولكنها لا تكشف عن مخ جهنمي .. واخرون معه لا يعرف منهم الا واحدا .. قد يوحي بأي شيء الا بحقيقته ، كان واسطة التعرف الى ذاك الاخر ..

اجل كان يلبس بذلة زرقاء حين دخل واشترى علبة كبريت ثمنها « فرنكا » ثم مد يده واخرج صندوق سجائره وأخذ واحدة وعرض عليه اخرى اعتذر عنها .. ودخن نصف السيجارة وهو على العتبة ووجهه الى الشارع ، ثم عاد وتلكأ كمن يريد ان يجره الى حديث اي حديث .. ولكنه عاد وطرق الموضوع بصراحة .. لقد سمع ــ ورفض ان يقول كيف ــ بأنه راغب في ان يتلبنن .. فاذا شاء فهناك طريقة واحدة .. والثمن ، اجل هناك ثمن ، الفا ليرة .. اغلى قليلا مما اعتاد الناس ان يدفعوا ، فموقف السلطات بان اصلب ، ولقد نبش الفلسطينيون كل جذور العائلات فما ظلت شجرة لم تمد لها فرعا في فلسطين ، وهؤلاء المحامون الذين أثروا من تجارة التجنس قد بدأ يخذلهم علم الانساب ...

الفان ؟ كثير ؟ أم لعلك ستعلق فرعي بأرومة ارزة نسي سليمان ان يحملها ليبني بخشبها هيكلا له في اورشليم ؟

كثير . وقبل سنوات لم يهضم ان يدفع ربعه ليبحث عن جد له في قرية لبنانية طيبة او ليبتعث تاريخا جديدا لجده ابى صالح الذي ولد فيما يعلم ، ومات فيما يعلم ايضا ، في « الرامة » ، وبهذا لا يكون قد انكره قبل صياح الديك ثلاثا ، ولكنه يستأذنه في ان يعدل من صدفة جغرافية تعفيه من كلمة « فلسطيني » تشده الى قطيع امحت فيه معالم الفردية ، يتلفظون بها مشفقين حين يرفض ان يكون موضع شفقة ، او ساخطين دون مبرر لسخط ، او متوعدين كلما نفث منافسوه من اصحاب الدكاكين الصغيرة حقدهم ونسجوه اشاعات يفسرون بها الاحداث على هواهم فتلتف حوله خيوطا واهية ولكنها متكاثفة ضبابة قلق تحسسه انه وحانوته هذا واولاده الاربعة وزوجه ليسوا اكثر من ألهية يتعابث بها مفسرو الحوادث ، وان ضمانته الوحيدة من الترحيل الى مجهول من اللجوء المركب هي ان يكون متجنسا . وكان الحافز

في نفسه يضعف كلما تراخت خيوط الاشاعات ومات خوفه في ثنايا الحياة اليومية ، ويقوى كلما عرض له امر يهز وجوده المتداعي ، حين يخرج ابنه من المدرسة مثلا فما يلمه عمل واحد اكثر من اسبوعين .. القانون صريح ومحظور العمل في المصالح والشركات على غير ابناء البلد ، فما وجد الشاب بدا من ان يطير الى صحراء من هذه الصحاري التي تجمع الناس اخوة على شقاء ، وتتسامح في اشقائهم ولو اختلفت الجنسيات ..

ويقوى الحافز ، يقوى اكثر فاكثر كلما عزم على سفر لشأن او اخر الى اهله الضاربين هنا او هناك ، فيضطر الى الوقوف بباب السلطات اسبوعا ليحصل على ورقة مرور .. وحين مات ابوه الذي يعيش في بيت اخيه في عمان ابرق لهم يقول « أخروه اسبوعا او فادفنوه » وكانت اتعس نكتة استمع اليها موظف البرقيات ضاحكا .

* * *

الفان ؟ كثير .

ويزوي المفاوض ما بين حاجبيه ويقرع طرف سيجارته الثانية بالعلبة قبل ان يشعلها « لن تحصل على هوية باقل ، واظنك حاولت ، الم تحاول ؟! »

بلى لقد حاول ، وتأرجحت دعواه ثلاث سنين بين اعذار المحامي الذي عاد ونفض يده من كل شيء الا من نصف مبلغ الاتعاب الذي تقاضاه مقدما ..

« ولكن اتكون مضمونة ؟ »

« لن تدفع قبل ان تمسك بها بيدك ولن نتقاضى شيئا مقدما » . وتلين القسمات وترتسم ابتسامة وينسحب الرجل ويتردد صوته طربا في ارجاء الدكان خافتا ولزجا . « فكر .. فكر .. وسأمر بك بعد ايام » .. ولم يفكر وحده .. بل حاول ان يدع زوجته تفكر ، وقالت مستهولة المبلغ : « الفان يارجل ؟ أهي هوية وزير وغيرنا نالها بثلاثمائة او بستمائة او بالمجان؟ » فرد دون ان يكون اساسا شديد الاعتقاد بما يقول ولكن ضنا منه على الفرصة ان تموت في جولتها اولى « الفان لاننا استكثرنا الثلاثمئة ذات مرة .. وقد نضطر ان ندفع العشرة الاف يوما .. اتريدين لابنك ان يعيش حياته في جحيم الدرجات الخمسين صيفا في بلد لا تعرف الشتاء ؟ » فتقول وقد مس اضعف اوتارها « افعل ما تشاء ! الفان الفان لا بارك الله لهم فيها .. هذا اذا وجدتها .. »

« اجدها اذا افرغت نصف واجهتي .. وساعلق فيها تلك الهوية فقد يعرف لنا الناس اسما ! » .

* * *

من عادة الكذب ان يكون حاسما في صدقه .. ثلاثة اسابيع او اربعة وانتهى كل شيء .. بترعة ومضاء ... ماقابل ذاك الذي يسمى نفسه استاذا اكثر من مرة واحدة .. ولقد سجل كل التفصيلات على ورقة .. الاسم واسم الزوجة والاولاد وامكنة الولادة والاعمار وقال بانه سيتدبر كل شيء ، الشهادات والوثائق لايريد شيئا عدا الصور ، والالفين طبعا .. وهي ليست خالصة له .. المصاريف كثيرة والاطراف اكثر .. »

اجل الاطراف اكثر . خمس صور في الصحيفة لخمسة مزورين ، عصابة مستوفية شروطها ، زعيمها استاذ وانفارها لا يقلون استاذية . ولديهم ـ كما تقول الصحيفة ـ عدة شغل كاملة .. وقد اعترف احدهم بانهم قد زوروا العشرات من البطاقات .. لم يكن الاحمق الوحيد فوجود الحمقى ضرورة لتجد العدالة ما تشغل به نفسها .. آه خذلتني ياجدي ابا صالح ، تراك ما احببت ان تعيش مرتين ، مرة ترعى بستان زيتون في الرامة ومرة ترفع انصاب كرمة على جلول جبل لبناني ؟ ..

* * *

مزق مزق الصحيفة وافقأ باصبعك عين هذا الاستاذ من وراء نظارته السوداء ، وما يجديك تمزيق الصحيفة فانت بذلك لا تمسح حقيقة الكذبة ، ولا تلغي انك دفعت الفين ثمن كرتونة وانك تعاونت مع مزورين ، وقد ..

كيف لم يفطن لذلك ؟ وشعر بالنار تأكله مرة واحدة .. الا يمكن ان يكون هؤلاء قد كشفوا عن المتعاملين ؟. ما اغباه او مايزال يشك في ان هذه هي النتيجة التي لا نتيجة بعدها : كيف اذن يتاح للسلطة ان تجمع البطاقات المزورة؟ مخدوع ام متواطيء ؟

حين يدفع الفين تتهمان نصف واجهته يكون مخدوعا، والى ان تسجل الحقيقة في محاضر التحقيق يكون قد انهك حتى العظم ،وتكون سيرة حمقه دخانا لسجائر الجيران .

مزقها مزقها فقد بدأت تأكل لحمك . لماذا عدت ووضعتها في جيبك الداخلي ؟ هي ليست ـ بألفيها ـ اثمن من هذه الصحيفة التي دفعت فيها « ربعا » . مزقها فواجهتك الفارغة ستمتليء يوما ، وستظل حقيقتك مفرغة حتى تملأها بغير الزور وخديعة المزورين .

مزقها . او تريد مزيدا من الاثبات ؟ تتاجر الصحف احيانا بالاكاذيب ولكنها لا تزين كذبها بخمس صور لاشخاص عرفت منهم اثنين وستشرف بمعرفة الباقين حين تواجه بهم .

أتجبن عن تمزيقها حتى وانت تحملها بين ابهامين وسبابتين ؟

مزقها مزقها فهي لاتسوى اكثر من ثمن الورق الذي طبعت عليه . ولكن لا ، دعها في جيبك الداخلي . دعها فتمزيقك اياها لا يخفي شيئا ، او يلغي شيئا .

* * *

ويجلس ثم يقوم ، ثم يجلس ثم يقوم ، ويلف في الحانوت كثور أعمى يواجه الشارع . فقد يخنق اضطرابه بين مظاهر الحياة المطمئنة الى رتابتها ، المستكينة الى حظوظها ، الحالمة بلا شيء ، محطة البنزين تفرغ وقودها في بطن سيارات كبيرة لامعة . وبائع الفاكهة يجلو غبار البستان عن تفاحاته ويجهد في ان يجعلها حمراء ، واللحام يأكل بسكينة اطراف الذبيحة المعلقة ، والحلاق يعبث برأس مستسلم ، رأس لا يتفصد منه القلق كرأسه .

ويرتد عن الباب متلفتا الى الصحيفة الممزقة فينحني عليها ويجمعها ويكورها ثم يلقي بها ، ويدير وجهه للشارع ثانية فيرى تلك السلة الازلية تتدلى اليه بحبل من الطابق الثاني الرابض فوق دكانه وقد راحت تتراقص في نزق تحت الشرفة ، وصوت الجارة يندلق من فوق تريد شيئا .. هي ابدا تريد شيئا ولا تتذكر اشياءها الا على دفعات ... ولكنه لايسمعها الساعة ، ولتصح مثلما تشاء فلن يبيع احدا .. ولكن الصوت لا ييأس ، والسلة لاتيأس ، وتمد المرأة صوتها الارعن جسرا عبر الشارع تبلغ به صبي الكراج المواجه وتقول له بلهجتها المطوطة الخلية « وينك ياولد قل « للفلسطيني » ان يضع لي في السلة زجاجة كولا ... »

وأحس الفلسطيني في وقفته المرتعشة خلف الطاولة بالصوت المطوط ينفذ من سترته الى جيبه الداخلي فيحيل البطاقة الى مزق ، مزق صغيرة تخشخش في جيبه ، في غير عنفوان !!

سميرة عزام